المحاضرة السابعة: الميثولوجيا والدين في حضارة بلاد الرافدين.

1 – الدين وظاهرة تعدد الآلهة: قدس السومريون مظاهر الطبيعة وعناصرها، ثم طوروا معتقداتهم فعبدوا القوى الكامنة ورائها، كحرارة الشمس وقوة المياه، ثم جعلوا الآلهة على صورة البشر يتصفون بالقوة والضعف لهم الحسنات ولهم السيئات.

فظهرت فكرة تعدد الآلهة بتعدد المدن (عبد الخصب بالدرجة الأولى)، لكل مدينة إلهها الحامي لا تكتفي بعبادته بل تسعى لفرضه على المدن الأخرى. ونادرا ما كانت مدينة تعبد إله مدينة أخرى تلقائيا، وإن عبد لا تبرزه أولا. ويبدو هذا جليا عند البابليين، الذين احتفظوا بالآلهة السومرية والأكادية. ولكنهم جعلوا مردوخ (مردوك) إله بابل في مقدمتها جميعا والسبب يعود لقوة حمورابي فنفوذ الإله مرتبط بنفوذ الملك، والملك مفروض بقوة الإله.

ولما كانت الغلبة للآشوريين، برز في مقدمة الآلهة، الإله آشور وكانت الإله عشتارت (الهة الحب والخصب) ملازمة له، ولكن شهرة مردوخ من جهة والكره المكبوت للآشوريين جعل مردوخ يبقى معبودا ولو سرا. وبعد سقوط اشور وطلوع نجم الكلدانيين برز الاله "نبو" ابن مردوخ.

أما عند السومريين فيمكن تصنيف أهم آلهتهم في مجموعين كل منها تضم عناصر المادة الثلاثة من هواء، ماء، وجماد.

1 الثالوث الأول: يتكون من :

انو: اله السماء

إنليل: اله الهواء ايا: آلهة الأرض المياه الجوفية

2 الثالوث الثاني: يتكون من:

شمش: اله الشمس

سين: اله القمر أذو(اذد): يجمع كل عناصر الطبيعة

إضافة إلى الآلهة كرم سكان العراق القديم أنصاف الآلهة والعمالقة مثل: جلجميش. كما أن الآشوريين اعتقدوا بوجود الروح "الروخا" وقسموها إلى روح الخير وروح الشر. كذلك الاعتقاد بسلطان السحر

والشياطين قديم في بلاد الرافدين، حيث اعتقدوا بوجود صلة بين الآلهة والشياطين، فقد يدفع الإله شيطانا إلى المضرة بالناس، لذا اعتنى البابليون بالتنجيم والعرافة واستخدموا الطلاسم.

2 – الاعتقاد بالحياة الآخرة :اعتقد السومريون بالحياة الآخرة وحياة ما بعد الموت، إلا أنهم لم يتطرقوا لفكرة الحساب، فعند مغادرة الروح للجسد تذهب إلى أصقاع ولا ترجع منها وهناك تستمر في حياة بائسة فقيرة، فكانوا يدفنون مع الميت تمثالا شديد الشبيه بالميت لترضى عنه الآلهة كما يجعلون مع الميت كل ما يحتاج إليه في حياته الأخروية مثل: المصاغ والمقتنيات الثمينة، وينحرون حيواناته، ويخنقون خدمه ليكونوا معه في خدمته وهي نفس المعتقدات التي شاعت مع الأكاديين والبابليين والآشوريين .

3 – العمارة في العراق القديم : تحتل العمارة مكانة مرموقة في حضارة بلاد الرافدين، ولها ارتباط وثيق بالحياة الدينية كون المعبد هو الأساس الأول لقيام أي مدينة من جهة، ومن جهة أخرى تميزت العمارة العراقية القديمة ببناء التحصينات الدفاعية بسبب حالة الصراع المستمر التي عرفتها البلاد، فقد اعتمد سكان بلاد الرافدين في مختلف المباني على الطين المجفف أو اللبن ولكن هذه المادة كانت لا تصمد أمام الفيضانات المتعاقبة، وهو ما عرض كثير من المدن للاندثار.

وفي عهد الكلدانيين تم استخدام الحجارة في العمارة لوفرتها في شمال العراق ويمكننا أن نقسم العمارة العراقية القديمة الى:

- العمارة الدنيوية (القصور):

وأشهرها قصر خورساباد في نينوى عاصمة الاشوريين وقصور بابل الكلدانية وبابل الشهيرة هي عاصمة الكلدانيين لا عاصمة البابليين وان كانت المدينة نفسها بحيث أن الكلدانيين زادوا في رونقها وشهرتها التي فقدتها بعد أن طمسها الاشوريون. حيث أقيمت هذه المدينة على نهر الفرات يحيط بها ضمان من الأسوار، وكانت شوارعها مستقيمة كما كانت بناياتها متعددة الطبقات وحدائقها غنية أبرزها قصر نبوخذ نصر وكذلك برج بابل بحدائقه المعلقة.

فأما القصر فقد بلغت مساحته 10 كلم²، طول قامة العرش 60م وعرضها 17م مطلية باللون الأبيض.

أما برج بابل: فهو في الأصل زقورة تتوسط الحدائق المعلقة وكان يوجد على قمتها معبد الاله "نبو" ابن مردوخ.

والحدائق المعلقة: تأخذ شكل تلة يوجد في أسفلها أعمدة شديدة الضخامة فارغة من الداخل ومعبأة بالتراب أو الرمال، حيث كانت تحمل من فوقها قناطير وهذه الأخيرة تحمل مدرجات توجد فيها نباتات وتتخللها أدراج عديدة، ويسلكها المتنزهون، وهذا ما أعطى فكرة الحدائق المعلقة.

- العمارة الدينية:

وتتمثل في المقابر والمعابد:

المعابد: تعددت أشكالها من الدائرية إلى المستطيلة الشكل أو المربعة إلا أن أشهر ما بناه السكان هي الزيقورات وأقدمها ما بناه السومريون وأشهرها: زقورة أورنامو في أور، وبرج بابل حيث عبد الإله نبو.

وتتكون الزقورة في الأصل من خمس طبقات متدرجة يعلوها المعبد ليكون قريبا من السماء فيسهل الاتصال بالآلهة أو نزولها ثم ارتقائها.

أما الآشوريون فقد جعلوا الزيقورة من 7 طبقات واستعملت أيضا في عملية الرصد للكواكب والنجوم ولعلم الفلك دور مهم في حياة سكان العراق القديم. وللوصول الى الطبقات العليا للزقورة أقيم درج ضخم مواجه يلتقي بدرجين جانبيين عند الطبقة الثانية من الزقورة، أما الآشوريون فاستعملوا درجا لولبيا يلتف حول الزقورة، وكانت المعابد والزقورات على درجة كبيرة من الغنى، فتتلقى يوميا القرابين (الحيوانات، السوائل والحبوب . ..)

المقابر: كانت تحت الأرض وتحتوي على جثة الميت وكل ما يحتاجه في حياته الأخرى كالمجوهرات والأسلحة والعبيد....إلا أن المقابر كانت أقل ضخامة عن باقي الحضارات لعدة أسباب منها: قلة الحجارة بالعراق القديم وزوال الكثير من المقابر بفعل الفيضانات وعدم صمود مواد البناء المتمثلة في الطين واللبن من جهة، والتخريب المستمر الذي طالها عبر تاريخ البلاد وهو مستمر إلى يومنا هذا.

4 – الأساطير العراقية القديمة:

الأسطورة : Mythe هي حكاية انطلقت من الواقع وتقوم على التهويل والتضخيم والاثارة وتتجاوز الواقع والمعقول –بفعل طغيان عنصر الزمن– ويلعب فيها الخيال دورا أساسيا وتصنع من قادة الحروب وأنصاف الالهة والحوادث الطبيعية مادة لها، وقد عرف سكان العراق القديم عديد الأساطير منها: أسطورة الخلق، أسطورة الطوفان، واهتموا من جهة أخرى بتدوين الملاحم الشخصية كملحمة جلجميش، كنتيجة حتمية لاختراع الكتابة، فمنذ القرن الثاني والثلاثين قبل الميلاد بدأ العراقيون القدماء في تدوين الأساطير، والقوانين باستخدام الكتابة المسمارية على الألواح الطينية[1]، ومن هذه الأساطير نبرز:

أسطورة الطوفان: اكتشفت هذه الأسطورة في الفترة الممتدة من 1889–1900 من طرف شعبة علمية فرنسية بمدينة نفر أين عثر على لوحة تحتوي 300 سطر، مبتور منها جزء مهم مكتوبة باللغة السومرية، وتؤرخ لحادثة الطوفان التي عرفتها بلاد الرافدين حوالي 3500 ق.م ويمكن أن نخلص محتواها فيما يلي:

تتحدث عن الكاهن الأعظم زيوسودرا، الذي أخذ في الدعاء وتقديم القرابين بعد انتشار الفساد في بلده، فطلب العون من الآلهة، فرأى حلما وأن صوتا يناديه وطلب منه أن يطيعه قائلا: "ان : أنو...انليل: سيرسل الطوفان للقضاء على البشر فأصنع سفينة وبعد سبع ليالي من الطوفان جفت الأرض وعاد زيوسودرا ومن معه للمعبد وشكر الإله، ثم سكن جنة الفردوس السومري (دلمون: المذكورة في التوراة)

وفي مقدمة الأسطورة ندرك كيف وقعت هذه الحادثة وما هي العوامل البيئية التي أحدثت الطوفان، ".....آلهة الأرض: بكت كالمرأة في المخاض: أي انفجرت الينابيع والمياه. و إننا آلهة الشمس ناحت على سكانها وشعبها وسالت الأمطار سبع ليال وسبع أيام، وأن الإله إنكي ساعد بعواصفه على هذه الظاهرة،

---

[1]- لقد ظهرت الكتابة عند السومريين حوالي منتصف الألف الرابعة قبل الميلاد، وفي ذلك الوقت كانوا يستعملون حوالي 2000حرف تصويري، الا أن هذا العدد أخذ يقل تدريجيا نتيجة لتزايد ترابط الحروف بالأصوات حتى وصل الى ما بين 600و 500 حرفا أو كلمة خلل الألف الثانية قبل الميلاد، بعضها صور تعبر على ما ترمز اليه، والبعض الآخر كلمات صوتية للتدليل اما مثله كحروف نطق، فمثل لفظ" تي "استخدمت لتدل الى سهم، وفي الوقت نفسه الى الحياة، وللتمييز بين المعنيين كانت تضاف الى كلمة سهم رسم يرمز لقطعة خشبية لكي تدل الى أن المقصود هو السهم المصنوع من الخشب وليس الحياة، لقد استطاع الكتبة القدماء أن يدونوا بهذه الكتابة التصويرية الأشياء المادية، أما المعاني المجردة فكان يصعب اليهم التعبير بالطريقة التصورية المحضة، فاهتدوا بمرور الزمن الى ابتكار الطريقة الرمزية أي طريقة التعبير عن الأفكار والمعاني المجردة بالصور بأن يرسموا الصورة المادية بهيئة مختصرة، ولا يريدون بها صورة الشيء المادي، وانما المعاني والأفكار المشتقة منه أو المتعلقة به، فمثلا أصبحت صورة القدم بحسب الطريقة الرمزية ل اتستخدم لتدوين القدم أو الرجل بل للتعبير عن المعاني المتعلقة بعضو القدم مثل: القيام والمشي والوقوف والدخول والخروج، وصارت صورة الشمس لا تعني كوكب الشمس و انما المعاني المشتقة منها كالحرارة والضوء، وبجمع الطريقة التصويرية المحضة والطريقة الرمزية صار بالإمكان التعبير عن معان وجمل كثيرة، ولكن مع ذلك ظلت الكتابة ناقصة لا يمكن التعبير بها عن المعاني المضبوطة لاحتمال التفسيرات بحسب القراء.

فحادثة الطوفان جاءت لظروف طبيعية ولأن زيوسودرا كان صالحا ف فإن بعض الآلهة الأخرى رفضت القضاء عليه فجاءته تبلك الرؤيا كي ينجو هو ومن معه من الصالحين. هذا بالنسبة لأسطورة الطوفان السومرية ونجدها نفس التفاصيل عند البابليين ماعدا بعض الاختلافات الصغيرة .

ملحمة جلجاميش:

اكتشفت سنة 1853م في 12 لوحة في مكتبة مدينة نينوى من طرف البريطاني "جورج سميث" وتمكن من حل رموزها سنة 1872م أين عثر عليها في مكتبة الملك آشور بانيبال الذي اهتم بالأدب وجمع كل الأساطير من الحضارة السومرية إلى عهده القرن 7 ق.م، ومخلص ملحمة جلجميش هي:

بحث الملك جلجميش عن الخلود بعد أن فقد صديقه أنكيدو، حيث انطلق جلجميش باحثا عن الخلود فالتقى بـ أتونا بشتم الذي قص عليه قصة الطوفان وكيف جازته الآلهة بالخلود وأكد له أنه من الصعب الوصول إلى تحقيق الخلود وأعطاه تجاربه إن نجح فيها سيكون خالدا وهي أن لا ينام أسبوعا ففشل جلجاميش ولكن زوجة أتونا بشتم توسطت له فأعطاه فرصة أخرى، فأعطاه اسم نبات يأكله فيصبح خالدا، فانطلق جلجاميش باحثا عنها فجاب أعماق البحار وأخذ النبات وفي طريقه إلى الوركاء اوروك وضع النبات على شط بحيرة ودخل البحيرة للاستحمام، فجاءت حية وأكلت تلك النبتة (نبتة الخلد) لذلك أصبحت الحية تبدل جلدها كل سنة.

للاستزادة أنظر ما يلي:

1- **طه باقر: التاريخ والتاريخ القديم، ط. 2، دار المعلمين، بغداد، 1955.**
2- **حلمي محروس إسماعيل: الشرق العربي القديم وحضارته، بلاد ما بين النهرين والشام والجزيرة العربية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1997.**
3- **محمد أو المحاسن عصفور: معالم حضارات الشرق الأدنى القديم، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1987.**
4- **ديلا بورت: بلاد ما بين النهرين، الحضارتان البابلية والآشورية، تر. محرم كمال، ط. 2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1997.**
5- **قاسم الشواف: ديوان الأساطير سومر وأكاد وآشور، الكتاب الثاني الآلهة والبشر، ط. 1، دار الساقي، بيروت، 1997.**
6- **طه باقر: مقدمة في أدب العراق القديم، طباعة كلية الآداب جامعة بغداد، 1976.**
7- **طه باقر: ملحمة كلكامش أوديسة العراق الخالدة، د. م، د. ت.**